

الفصل الخامس والعشرون

حنين والطائف

تألب هوازن وتقيف بإمرة مالك بن عوف - تحصينهم بمضيق وادي حنين - خروج المسلمين إلى حنين تعجبهم كثرتهم - دخول المسلمين من مضيق الوادي في عمابة الصبح - ضرب هوازن وتقيف إياهم من المرتفعات وارتدادهم منهزمين - ثبات محمد إلى الموت - صياح العباس بالمسلمين كي يعودوا - عودهم إلى رسول الله ومقاتلتهم وانتصارهم - الفؤ - المسير إلى الطائف - حصارها وعدم إمكان اقتحامها - تحريق نخيلها - استرحامها النبي - رجوعه عن الحصار - إسلام هوازن - حديث الشيا - العود إلى الجعرانة وقسمة الفء - العمرة - العودة إلى المدينة.

أقام المسلمون بمكة بعد فتحهم إياها فرحين بنصر الله إياهم، مغتبطين أن لم يُسَفَك في هذا النصر العظيم إلا الدم القليل، مسارعين إلى البيت الحرام كلما أذن بلاءً بالصلاة، متدافعين حول رسول الله حيث أقام وحيث ذهب. يغشى المهاجرين منهم دورهم ويتصلون بأهلهم الذين هدى الله بعد الفتح، ونفوسهم جميعاً مطمئنة إلى أن الأمر قد استقر للإسلام، وأن الجانب الأكبر من الجهاد قد كُتِبَ بالفوز والظفر. وإنهم لذلك بعد خمسة عشر يوماً من مقامهم بأم القرى إذ ترامت إليهم أنباء أيقظت استنامتهم للغبطة! تلك أن هوازن كانت تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقي في جبال هناك، فلما علمت بما تم للمسلمين من فتح مكة ومن تحطيم أصنامها. خشيت أن تدور عليها الدائرة وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها، ففكرت فيها تصنع لاتقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع ولصد محمد ﷺ والكف من غلواء المسلمين الذين يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة وعلى ضمها كلها في وحدة يُظَلِّها الإسلام، لذلك جمع مالك بن عوف النَّصْرِيَّ هوازن وثقيفاً، كما اجتمعت نَصْرٌ وجُشَم، ولم يتخلف عن الاجتماع من هوازن إلا كَعْب وكِلاب.

مسيرة مالك بن عوف لقتال المسلمين:

وكان في جُشَم ثُرَيْد بن الصَّمَّة. وكان يومئذ شيخاً كبيراً لا نفع منه في الحرب، ولكنها كان الانتفاع برأيه بعد الذي عرَّكه على السنين في وقائعها. اجتمعت هذه القبائل كلها ومعها أمواؤها ونساؤها وأبنائوها، وتم جمعها حين نزلت سهل أوطاس. فلما سمع ثُرَيْد رُغَاءَ البعير ونهائى الحمير وبكاء الصغير وتغاء النساء، سأل مالك بن عوف: لم ساق مع المحاربين أمواهم ونساءهم وصغارهم؟ فلما أجابه مالك بأنه إنما أراد أن يشجع بها المحاربين، قال ثُرَيْد: وهل يرَدُّ المنهزم شيء! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحَّتْ في أهلِكَ ومالك. واختلف هو

ومالك. وتبع الناس مالكا، وكان شاباً في الثلاثين من عمره قوى الإرادة ماضى العزيمة، وتابعهم دُرَيْد ما يرده لهم، على رغم سابقته في الحرب، رأياً.

تحصين القبائل بمضيق الوادى:

وأمر مالك الناس أن ينحازوا إلى قِمَم حُنَيْنٍ وعند مضيق الوادى؛ فإذا نزل المسلمون واديه فليشدوا عليهم شدة رجل واحد تُضعف صفوفهم، فيختلط حابلهم بنايلهم ويضرب بعضهم بعضاً، وتدور عليهم الهزيمة، ويوزل أثر انتصارهم حين فتحوا مكة، ويبقى لقبائل حنين في بلاد العرب جميعاً فخار النصر على هذه القوة التي تريد أن تُظَلَّ بسطانها بلاد العرب جميعاً. وامتلئت القبائل أمر مالك وتحصنت بمضيق الوادى.

مسيرة المسلمين إلى حنين - فرار المسلمين:

أما المسلمون فبادروا بعد أسبوعين من مقامهم بمكة وعلى رأسهم محمد في عُدَّةٍ وعديد لم يكن لهم من قبل بها عهد قط. ساروا في اثني عشر ألفاً من المقاتلين، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكة وفتحوها، وألفان ممن أسلم من قريش، وبينهم أبو سفيان بن حرب، وكلهم تلمع دروعهم، وفي مقدمتهم الفرسان والإبل تحمل الميرة والذخيرة. سار المسلمون في هذا الجيش الذي لم تعرف بلاد العرب من قبل مثاله، يتقدم كل قبيلة عَلمها وتمتلى النفوس كلها إعجاباً بهذه الكثرة، وبأن لا غالب اليوم لها؛ حتى لقد تحدت بعضهم بذلك إلى بعض وجعلوا يقولون: لن تغلب اليوم لكثرتنا. وبلغوا حُنَيْنًا والمساء يقبل، فنزلوا على أبواب وادها وأقاموا بها حتى بُكرة الفجر. هنالك تحرك الجيش، وركب محمد ﷺ بغلته البيضاء في مؤخرته، على حين سار خالد بن الوليد على رأس بنى سُلَيْم في المقدمة، وانحدروا من مضيق حُنَيْنٍ في وادٍ من أودية تِهَامَةَ. وإنهم كذلك منحطون إلى الوادى إذ شدت عليهم القبائل بإمرة مالك بن عوف شدة رجل واحد وأصلوهم وابلأ من النبال وهم جميعاً ما يزالون في عمية الفجر. إذ ذاك اختلط أمر المسلمين واضطرب، وعادوا منهزمين قد أخذ الخوف والفرع منهم كل مأخذ، حتى أطلق بعضهم ساقيه للريح، وحتى قال أبو سفيان بن حرب وعلى شفته ابتسامة المغتبط لغشل أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر. وقال شَيْبَةَ بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدرك ثأرى من محمد، وكان أبوه قد قُتِلَ في غزوة أحد. وقال كَلْدَةَ بن حنبل: أَلَا بَطَلُ السحرِ اليوم! فردَّ عليه أخوه صَفْوَان: اسكت فضَّ الله فاك! فو الله لأن يرَبِّي^(١) رجل من قريش أحبُّ إليَّ من أن يرَبِّي رجل من هوازن. تقع هذه الأحاديث والجيش يختلط حابله بنايله والنبى في المؤخرة تمرُّ عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مهزومة لا تلوى على شيء.

(١) ربه: ملكه وساسه.

ثبات محمد ﷺ وقوة عزمته:

ماذا تراه يصنع؟ أفتضيع تضحيات عشرين سنة في هذه اللحظة من عمية الصبح؟ أفتنحى عنه ربّه وتخلّي عنه نصر الله إياه؟! كلا! كلا! لن يكون هذا! دون هذا تبيد أمم وتفتى أقوام! ودون هذا الموت يدخل محمد في غماره لعل في الموت لدين الله نصراً. وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وثبت محمد مكانه، وأحاط به جماعة من المهاجرين والأنصار ومعه أهل بيته، وجعل ينادى في الناس إذ يروين به منهزمين: أين أيها الناس! أين! لكن الناس كانوا فيما هم فيه من هول الفزع لا يسمعون إلى شى ولا يدور بتصورهم إلا هوازن وثقيف منحدرتين من مُعْتَصَمَها بالقَمَمِ تطاردانهم حتى تأنياً عليهم. ولم يخطئ تصورهم؛ فقد انحدرت هوازن من مكانها يتقدمها رجل على جبل له أحر، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه، وهوازن وثقيف وأنصارها منحدرين من ورائه يطعنون. وثارت بـمحمد حميته، فأراد أن يندفع ببغلة البيضاء في صدر هذا السيل الدافق من رجال العدو، وليكن بعد ذلك أمر الله. لكن أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب أمسك ببغلة وحال دون تقدمها.

نداء العباس في الناس:

وكان العباس بن عبدالمطلب رجلاً جسيماً جهّوري الصوت قويّه، فنادى بما أسمع الناس جميعاً من كل فجّ: يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة! إن محمداً حيٌّ فهلمّوا! وكرر العباس النداء حتى تجاوزت في كل جنّبات الوادي أصدائه. وهنا كانت المعجزة: سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا محمداً ﷺ وذكروا عهدهم وشرفهم. وسمع المهاجرون اسم محمد ﷺ فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم. وسمع هؤلاء وأولئك بسكينة محمد ﷺ وثباته في نفر قليل من المهاجرين والأنصار، كئيباته يوم أحد، في وجه هذا العدو الزاحف، صوّرت لهم نفوسهم ما قد ينشأ عن خذلانهم إياه من تغلب المشركين على دين الله. وكان نداء العباس أثناء ذلك ما يزال يدوى في آذانهم وتهتز لأصدائه أوتار قلوبهم. هنالك تصايحوا من كل صوب: لبيك لبيك! وارتدوا إلى المعركة مستبشرين.

رجوع المسلمين واستماتتهم - انتصار المسلمين وما غنموا:

وبدأت الطمأنينة تعاود محمداً ﷺ حين رآهم يعودون؛ فقد انحدرت هوازن من مكانها وأصبحت وجهها لوجه مع المسلمين في الوادي. وقد أضاء النهار وطفى النور على عمية الفجر. واجتمع حول رسول الله بضع مئات استقبلوا القبائل وصبروا لهم، وقد أخذ يزداد عددهم وتشدّد بعودتهم عزائم من خارت من قبل عزائمهم وجعل الأنصار يتصايحون يا للأنصار! ثم تنادوا:

يا للخزرج ومحمد ينظر إلى تناحر القوم؛ حتى إذا رأى الصدام اشتد ورأى رجاله تسمو نفوسهم ويطيحون بخصومهم، نادى: الآن حمى الوطيس، إن الله لا يخلف رسوله وعده. ثم طلب إلى العباس فنأوله حَفَنَةً من الحصى ألقى بها في وجوه العدو؛ قائلاً: شأهت الوجوه. واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله، مؤمنين بأن النصر لا محالة آت، وأن من استشهد منهم فله من النصر أكبر من نصيب من بقى. وكان البلاء شديداً؛ حتى إن هوازن وثقيفاً ومن معهم ما لبثوا، حين رأوا كل مقاومة غير مجدية وأنهم معرضون للفناء عن آخرهم، وإن فروا منهزمين لا يلوون على شيء، تاركين وراءهم نساءهم وأبنائهم وأموالهم غنيمة للمسلمين الذين أحصواها يومئذ اثنين وعشرين ألفاً من الإبل وأربعين ألفاً من الشاء وأربعة آلاف أوقية من الفضة. أما الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نقلوا محروسين إلى وادى الجعرانة حيث أووا إلى أن يعود المسلمون من مطاردة عدوهم ومن حصار ثقيف بالطائف.

تعقب المسلمين عدوهم:

رتابع المسلمون مطاردتهم لعدوهم. وزادهم إغراءً بهذه المطاردة أن أعلن الرسول ﷺ أن من قتل مشركاً فله سلبه. وأدرك ابن الدُّعْنَةَ جملاً عليه شجراً^(١) ظن به امرأة طمع في سلبها، فأناخ الجمل فإذا شيخ كبير لا يعرفه الفتى هو دُرَيْدُ ابنِ النُّصْمَةِ. وسأل ربيعة: ما يريد به؟ قال: أقتلك، وأهوى عليه بسيفه فلم يُغن شيئاً. قال دريد: «بئس ما سلحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به، وارفع عن العظام واخفِض عن الدماغ فإني كذلك كنت أضرب به الرجال. ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دُرَيْدَ بنِ النُّصْمَةِ، فرب والله يوم منعت فيه نساءك». ولما رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها خبره قالت له: «حرق الله يدك، فإمّا قال ذلك ليزكرنا نعمه عليك. فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمهات في غداة: أنا وأمي وأمّ أبيك» وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوطاسا، وهناك أوقفوا بهم وهزمهم شرّ هزيمة، وسبوا من احتملوا من النساء والأموال وعادوا بهم إلى محمد. أما مالك بن عوف النصرى فقد ثبت هنيهة ثم فرّ وقومه مع هوازن حتى افترق عنهم عند نخلة، ثم ولى وجهه نحو الطائف فاحتفى بها.

هزيمة المشركين تامة:

وكذلك كان نصر المؤمنين مؤزراً، وكانت هزيمة المشركين تامة بعد ذلك الفزع الذى أصاب المسلمين في عمابة الصبح، وحين شدّ المشركون عليهم شدة رجل واحد ضعفت صفوفهم وخلطت حابلهم بنايلهم. كان نصر المسلمين مؤزراً بفضل ثبات محمد والفتة القليلة التى أحاطت به. وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ

(١) شجار: مركب مكشوف دون الهودج، ويقال له مشجر.

عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١).

ثمن النصر:

على أن المسلمين لم يحرزوا هذا النصر المؤزر رخيصةً، بل دفعوا ثمنًا غاليًا لعلمهم لم يكونوا يدفعونه لولا تخاذلهم الأول وتدافعهم مهزومين، ليقول فيهم أبو سفيان: إنهم لا يرددهم إلا البحر. دفعوا الثمن غاليًا من مهج الرجال وأرواح الأبطال الذين استشهدوا في الواقعة. ولئن لم تُخص كتب السيرة كل القتلى، لقد ذكرت أن قبيلتين من المسلمين فتيئا أو كادتا، وأن النبي صلى على أرواحهم رجاء أن يدخلهم الله الجنة. لكنه كان النصر على كل حال: النصر التام تغلب فيه المسلمون على خصومهم وغنموا منهم وأسروا ما لم يغنموا ولم يأيروا من قبل. والنصر هو كل شيء في النضال أيًا كان الثمن الذي يُدفع فيه ما دام نصرًا شريفًا. لذلك اغتبط المسلمون بما جازاهم الله، وظلوا يرتقبون قسمة الفء والعودة بالغنيمة.

لكن محمدًا ﷺ كان يريد نصرًا أكثر روعة وأعظم جلالًا. وإذا كان مالك بن عوف هو الذي قاد هذه الجموع، ثم احتسى بعد هزيمتها مع ثقيف بالطائف، فليحاصر المسلمون الطائف وليضيقوا عليها الحصار. وتلك كانت خطة محمد في خيبر بعد أحد، وفي قريظة بعد الخندق. ولعله أذكر في موقفه هذا يوم ذهب إلى الطائف لسنوات قبل الهجرة يدعو أهلها إلى الإسلام، فسخرها منه وقذفه صبيانهم بالأحجار، حتى اضطر إلى الاحتباء من أذاهم بحائط^(٢) فيه كرم. ولعله أذكر كيف ذهب يومئذ متفردًا ضعيفًا، لا حول له ولا قوة إلا حول الله وقوته، وإلا هذا الإيمان العظيم الذي ملأ صدره والذي يدك الجبال. وها هو ذا الآن يذهب إلى الطائف في جمع من المسلمين لم تشهد جزيرة العرب في ماضى تاريخها جمعًا مثله.

حصار الطائف:

أمر محمد ﷺ أصحابه إذا أن يسيروا إلى الطائف لبحاصروا بها ثقيفًا وعلى رأسها مالك بن عوف. وكانت الطائف مدينة محصنة لها أبواب تغلق عليها كأكثر مدن العرب في ذلك العصر. وكان أهلها ذوى دراية بحرب الحصار، وذوى ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون. وقد سار المسلمون إليها فعمروا في مسيرتهم بليّة حيث يقوم حصن خاص لمالك بن عوف فهدموه، كما خرّبوا

(٢) الحائط، السان.

(١) سورة التوبة الآيات من ٢٥ إلى ٢٨.

أثناء مسيرتهم كذلك حائطاً لرجل من ثقيف. وبلغ المسلمون الطائف، فأمر النبيُّ عسكره فنزل على مقربة منها، وجمع أصحابه ليفكروا فيما يصنعون. لكن ثقيفاً ما لبثت حين رأتهم من أعلى حصونها أن نالتهم بالنبل وقتلت جماعة منهم. ولم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة إلا أن يلجأوا إلى وسائل غير التي ألفوا حتى اليوم حين حاصروا قريظة وخيبر. أترأهم إن هم اكتفوا بالحصار يصلوا إلى تجويع ثقيف تجويعاً يجعلها على التسليم؟ وإذا هم أرادوا مهاجمتها فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التي يهاجمونها بها؟ هذه أمور تحتاج إلى التفكير وإلى الوقت. فلينسحب العسكر إذاً بعيداً عن مرمى النبل لكي لا يصيبه فيقتل رجال من المسلمين، ثم ليفكر محمد فيما عسى أن يصنع.

مسجد الطائف:

وأمر عليه السلام فنقل العسكر بعيداً عن مرمى النبل في مكان أقيم به مسجد الطائف بعد أن سلّمت الطائف وأسلمت. ولم يكن من ذلك بدّ وقد قتلت نبال ثقيف ثمانية عشر من المسلمين، وجرح كثيرون، بينهم أحد أبناء أبي بكر. وفي جانب من هذا المكان البعيد عن مرمى النبال ضربت خيمتان من جلد أحرر لزوجتي النبيّ أم سلمة وزينب، وكانتا تيسيران معه في كل هذه الوقائع منذ ترك المدينة. وبين هاتين الخيمتين كان محمد يقيم الصلاة. ولعل مسجد الطائف إنما أقيم في هذا المكان.

رمى الطائف بالمنجنيق:

وأقام المسلمون ينتظرون ما الله صانع بهم وبعدهم. قال أحد الأعراب للنبيّ: إنما ثقيف في حصنها كالثعلب في جُحره، لا سبيل إلى إخراجه منه إلا بطول المكث، فإن تركته لم يلحقك منه ضررٌ. لكننا شق على محمد أن يعود أدراجه دون أن يصيب من ثقيف شيئاً. وكان لبني دؤس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) علمٌ بالرماية بالمنجنيق وبمهاجمة الحصون في حماية الدّبابات. وكان أحد رؤسائها الطّفيّل قد صحب محمداً منذ غزا خيبر؛ وكان معه عند حصار الطائف؛ فأوفده النبيّ إلى قومه يستنصرهم؛ فجاء بطائفة منهم ومعهم أدواتهم فبلغوا الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إيّاه، ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق، وبعثوا إليها بالدّبابات دخل تحتها نفر منهم، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه. لكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار. فقد أحموا قطعاً من الحديد بالنار، حتى إذا انصهرت ألغوها على الدّبابات فحرقتها، ففرّ جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا؛ فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلت جماعة منهم. لم يُفلح هذا المجهود إذاً أيضاً، ولم يستطع المسلمون التغلب على مناعة هذه الحصون.

قطع الكروم وتحريقها:

ماذا عساهم بعد ذلك يصنعون؟ فكر محمد ﷺ في هذا وفكر طويلاً. ولكن أم ينتصر على بني النضير ويُجلبها عن ديارها بإحراق نخيلها؟! وكروم الطائف أكبر قيمة من نخيل بني النضير، فهي كروم لها من ذبوع الاسم في بلاد العرب جمعاء ما تباهى به الطائف أخصب بلاد العرب، وما جعل الطائف واحة كأنها الجنة وسط هذه الصحارى. وأمر محمد قبدأ المسلمون يَنْقُذون، يقطعون ويحرقون الكروم التي ما يزال لها حتى اليوم مثل ما كان لها من شهرة وذبوع صوت. ورأى التقفيون هذا وأيقنوا أن محمداً ﷺ جادٌ فيه، فبعثوا إليه أن يأخذ لنفسه إن شاء وأن يدعه لله وللرحم لما بينه وبينهم من قرابة. استمهل محمد رجاله. ثم نادى في ثقيف إنه مُعْتَق من جاء إليه من الطائف. ففرَّ إليه قرابة عشرين من أهلها. عرف منهم أن بالحصون من الذخيرة ما يكفى أمداً طويلاً. هنالك رأى أن الحصار سيطول أمده، وأن جيوشه تؤدُّ الرجوع لاقتسام الفئى الذى كسبوا، وأنه إن أصرَّ على البقاء فقد ينفذ صبرهم. هذا وكانت الأشهر الحرم قد أذنت ولا يجوز فيها قتال. لذلك أثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه. وكان ذو القعدة قد هلَّ فرجع بجيشه معتمراً، وذكر أنه متجهز إلى الطائف إذا انتهت الأشهر الحرم.

وفد هوازن يستردون السبايا:

وانصرف محمد ﷺ والمسلمون معه عن الطائف قافلين إلى مكة حتى نزلوا الجعرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراعهم. وهنالك نزلوا يقتسمون. وفصل الرسول الخمس لنفسه ووزع ما بقى على أصحابه. وإنهم بالجعرانة إذ جاء وفد من هوازن قد أسلموا وهم يرجون أن يرد عليهم أموالهم ونساءهم وأبنائهم، مبعد أن طال عنهم غيابهم، وبعد أن ذاقوا مرارة ما حلَّ بهم. ولقى الوفد محمداً، وخاطبه أحدهم قائلاً: يا رسول الله، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضتك اللواتى كن يكفلنك. ولو أنا ملحننا^(١) للحارث بن أبى شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل مناً بمنزل الذى نزلت به، رجونا عطفه وعائده علينا؛ وأنت خير المكفولين. ولم يخطئ هؤلاء فى تذكير محمد بصلته بهم وقرابته منهم؛ فقد كانت بين السبايا امرأة تحطت الكهولة عنف عليها الجند المسلمون؛ فقالت لهم: تعلموا والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاعة. فلم يصدقوها وجاءوا بها محمداً، فعرّفها فإذا هى الشيباء بنت الحارث بن عبد العزى. وأداناها محمد منه وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخبرها إن أحبَّ أبقاها وإن أحبَّت متعها ورجعها إلى قومها؛ فاخترت الرجوع إلى قومها.

(١) أى أَرْضعناه.

رد سبايا هوازن:

طبيعي وتلك صلة محمد ﷺ بهؤلاء الرجال الذين أقبلوا عليه من هوازن مسلمين، أن يعطف عليهم وأن يجيبهم إلى مطلبهم؛ فقد كان ذلك دائماً شأنه مع كل من أسدى إليه يوماً من الدهر يداً. كان عرفان الجميل بعض شأنه، والبر بكليم القلب في جبلته. فلما سمع مقاتلتهم سألهم: أبتاؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا؛ بل ترد علينا نساءنا وأبتنا فهم أحب إلينا. فقال عليه السلام: أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم. وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبتنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم. ونفذت هوازن قول النبي ﷺ، فأجابهم: أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم. قال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وكذلك قال الأنصار. أما الأقرع بن حابس عن تميم وعيينة بن حصن فرفضوا، ورفض العباس بن مرداس عن بني سليم؛ لكن بنى سليم لم يقرأوا العباس على رفضه. هنالك قال النبي ﷺ: أما من تمسك منك بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه. وكذلك ردت نساء هوازن وأبتاؤها إليها بعد أن أعلنت إسلامها.

مخافة الناس نقص نفىء:

وسأل محمد ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف النضري. فلما علم أنه ما يزال بالضائف مع ثقيف، طلب إليهم أن يبلغوه: أنه إن أتاه مسلماً رد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل. ولم يبطئ مالك حين علم بوعد الرسول أن أسرج فرسه في سير من ثقيف، وأن نجا بها حتى لحق بالرسول، فأعلن إسلامه فأخذ أهله وماله ومائة من الإبل. وأوجس الناس خيفة إن أفضى محمد ﷺ سده الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص من قسمتهم من نفىء، نألخوا في أن يأخذ كل فيأه وتهامسوا بذلك. فلما بلغ الهمس النبي وقف إلى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها وقال: «أيها الناس، والله مالي من فينكم رلا سده الوبرة إلا الخمس، والخمس مررد عليكم». وطلب إلى كل أن يرد ما غنم حتى تكون انقصة العدل، «فمن أخذ شيئاً في غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عازاً وناراً وشناراً إلى يوم القيامة».

قال محمد ﷺ هذه العبارة مغضباً بعد أن ردوا إليه رداءه الذي أخذوا، وبعد أن صاح بهم: ردوا إلي ودائي أيها الناس. غوا لله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نعباً لقسمته عليكم، ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. ثم إنه حَسَّ الغنيمة وأعطى من حَسَّه الذين كانوا إلى أيام أشد الناس عداوة له نصيباً على نصيبهم، فأعطى مائة من الإبل كلاً من أبي سفيان وابنة معاوية والحارث بن الحارث بن كَلْدَةَ والحارث بن هشام وسُهَيْل بن عمرو وحُوَيْطِب ابن عبد العزى والأشرف

ورؤساء العشائر ممن تألف بعد فتح مكة؛ وأعطى خمسين من الإبل من كانوا دون هؤلاء شأنًا ومكانة. وقد بلغ عدد الذين أعطاهم عشرات. وبدا محمد يومئذ غاية من السماحة والكرم مما جعل أعداء الأوس تنطلق ألسنتهم بجميل الثناء عليه. ولم يدع لأحد من هؤلاء المؤلفلة قلوبهم حاجة إلا قضاها. أعطى عباس بن مرداس عددًا من الإبل لم يرضه وعاتبه على أن فضل عليه عينة والأقرع وغيرهما. فقال النبي اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه. فأعطوه حتى رضى وكان ذلك قطع لسانه.

الأنصار وعطاء المؤلفلة قلوبهم:

على أن هذا الذى تألف به النبي قلوب من كانوا إلى أوس أعداءه، قد جعل الأنصار يتحدث بعضهم إلى بعض فيما صنع الرسول ويقول بعضهم لبعض: «لقى والله رسول الله قومه». ورأى سعد بن عبادة أن يبلغ النبي مقالة الأنصار ويؤيدهم فيها؛ فقال له النبي ﷺ: اجتمع لى قومك فى هذه الحظيرة فجمعهم سعد وأتاهم النبي، فدار الحوار الآتى:

محمد ﷺ: يا معشر الأنصار، ما قاله بلغتى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم؟! ألم آتكم ضللاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟.

الأنصار: بلى! الله ورسوله أمن وأفضل.

محمد ﷺ: ألا تحببونى يا معشر الأنصار؟

الأنصار: بماذا نحببك يا رسول الله ولرسوله المن والفضل.

محمد ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذباً فصدقتنا، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار فى لعاعة^(١) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا وولكلتم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

قال النبي ﷺ هذه العبارات وكله تأثر، وكله فيض من الحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزوا به وأعزوه، حتى بلغ من تأثره أن بكى الأنصار وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحفظاً. وكذلك أظهر النبي ﷺ رغبة عن هذا المال الذى غنم فى حنين والذى بلغ ما لم يبلغه فى من قبل. أظهر رغبته عنه، وجعله وسيلة تتألف بها قلوب الذين كانوا، إلى أسابيع قليلة، شركين ليروا فى الدين الجديد سعادة الدنيا والآخرة. وإذا كان محمد ﷺ قد عناه أمر هذا المال فى قسمته حتى

لقد كاد المسلمون يتهمونه، وإذا هو كان قد أغضب الأنصار بما أعطى المؤلفَةَ قلوبهم، فإنه قد أظهر من العدل ومن بعد النظر ومن حسن السياسة ما مكَّنه من أن يعود بهذه الألوف من العرب وكلهم راضيةً نفسه، مطمئن قلبه، مستعدُّ لأن يهب حياته في سبيل الله.

وخرج الرسول ﷺ من الجِعْرانة معتمرًا إلى مكة. فلما قضى عمرته استخلف عتَّاب بن أُسَيْد على أمِّ القرى، وخلف معه مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ لِيَقْفَهُ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ وَيَعْلَمَهُمُ الْقُرْآنَ، وَعَادَ هُوَ وَالْأَنْصَارُ وَالْمُهَاجِرُونَ قَافِلِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَقِيمَ النَّبِيُّ بِهَا رَيْثًا يَرْزُقُهُ اللَّهُ ابْنَهُ إِبْرَاهِيمَ، وَلِيَطْمَئِنَّ إِلَى شَيْءٍ مِنْ سَكِينَةِ الْحَيَاةِ زَمَنًا ثُمَّ يَتَجَهَّزَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ بِالشَّامِ.